كلمة العدد :

تعارف الحضارات: الفكرة، الخبرة والتأسيس

أ.د. زكي الميلاد[1]

1. غارودي وحوار الحضارات

عند النظر في فكرة حوار الحضارات خلال القرن العشرين وما بعده، يمكن الحديث عن أربعة أزمنة أساسية، تشرح طبيعة الأطوار التي مرت بها هذه الفكرة، والسياقات والأرضيات الفكرية والسياسية التي تأثرت بها، كما تشرح طبيعة حركة هذه الفكرة، ومستويات الاهتمام بها، وكيفيات التعاطي معها، ومنظورات الرؤية لها، وهذه الأزمنة هي على النحو التالي:

الزمن الأول: يتحدد في النصف الثاني من سبعينيات القرن العشرين، حينما تبنى هذه الدعوة المفكر الفرنسي المعروف روجيه غارودي، وشرحها في كتابه الشهير (من أجل حوار بين الحضارات) الصادر سنة 1977م، الكتاب الذي يمكن وصفه بمثابة مرافعة محكمة في الدفاع عن قضية حوار الحضارات، وتميز بمنطق شديد التماسك، وبخطاب موثق بالشهادات والوقائع والحقائق، وبالنمط الذي يمكن اعتباره من الصور الفعلية التي تجسد حوار الحضارات، وظهر غارودي في هذا الكتاب أحد أكثر المنظرين والمتحمسين لهذه الفكرة التي عرف واشتهر بها عالمياً.

هذه الدعوة في أطروحة غارودي مرت بثلاثة أطوار زمنية وفكرية، جسدت شخصية غارودي الفكرية في انتقالاته وعبوره بين الأيديولوجيات والأديان، وكشفت عن طبيعته الجدلية والإشكالية، وذهنيته الحائرة والقلقة، بحثاً عن الأمل الذي ظل يفتش عنه في الثقافات والحضارات الإنسانية، وهذه الأطوار هي:

الطور الأول: الدعوة للحوار بين الماركسية والمسيحية، وذلك حينما كان غارودي مفكراً في الحزب الشيوعي الفرنسي، وكان يصف نفسه آنذاك بالمحرك الرئيسي لهذه الدعوة في فرنسا وأوروبا، طيلة اثنتي عشرة سنة، وكانت الغاية من هذه الدعوة حسب رؤية غارودي هي بناء العلاقة بين التحرر والإيمان، التحرر الذي تمثله الماركسية، والإيمان الذي تمثله المسيحية.

الطور الثاني: في سنة 1968م تكوّنت عند غارودي رؤية لفت بها نظر المجتمع المسكوني للكنائس في جنيف، حيث اعتبر أن الحوار بين الماركسيين والمسيحيين سوف يظل إقليمياً حسب تعبيره، ولن يتقدم إلا في نطاق منطقة ثقافية واحدة، وهي منطقة الغرب، وإنه من الأهمية في نظره التحول نحو إدارة هذا الحوار على مستوى الحضارات، وكانت الغاية من هذا الحوار في نظر غارودي هي بناء العلاقة بين الإيمان والتاريخ، الإيمان والعالم، الإيمان الذي يعطي الشعوب القوة والأمل في تغيير العالم والحياة.

الطور الثالث: التأكيد والتركيز على الحوار بين الغرب والإسلام، وهي الدعوة التي ظهرت واضحة ومتجلية في

---

[1]-رئيس تحرير مجلة الكلمة . السعودية

الكتاب الذي أصدره غارودي سنة 1981 بعنوان (وعود الإسلام)، وفي كتابه أيضاً (الإسلام في الغرب: قرطبة عاصمة الروح والفكر)، فقد اعتبر أن العقبة الرئيسية التي تقف في وجه حوار الحضارات هي النظرة التي حملها الغرب منذ مئات السنين عن الإسلام، وإن النظرة للإسلام في رؤية غارودي إنما تتعلق بمستقبلنا، مستقبل البشرية الذي يتعرض مصيره للخطر، فالإسلام قوة حية ليس كامناً فقط في ماضيه، وإنما في كل ما يمكن أن يقدمه لصنع المستقبل.

وقد تأكدت قناعة غارودي بالإسلام الذي أعلن اعتناقه له سنة 1982م، ووجد فيه الأبعاد الإنسانية المطلوبة، والفرص المفقودة في أنظمة الغرب الثقافية والفلسفية والاجتماعية والاقتصادية، لذلك أولى أهمية للدفاع عن الإسلام، والتعرف عليه، واكتشاف جمالياته، وتركيز النقد على الغرب في رؤيته وأنماط تعامله مع الإسلام، ومع التراث الإسلامي الذي يصفه بالتراث الثالث المكوّن للتراث الغربي، والذي رفضه الغرب كما يقول غارودي منذ ثلاثة عشر قرناً، التراث الذي كان باستطاعته ولا يزال، في نظر غارودي ليس الإصلاح بينه وبين حِكَمِ العالم فحسب، بل مساعدته بالتعرف على الأبعاد الإنسانية والإلهية التي انفصل عنها، عندما نمّى أحادياً إرادته للسيطرة على الطبيعة والناس.[2]

وما يعزز هذه القناعة عند غارودي رؤيته بأن الإسلام (لم يكمل ويخصب وينشر أقدم وأرفع الحضارات فحسب، كحضارة الصين والهند وفارس واليونان والإسكندرية وبيزنطة، بل حمل إلى إمبراطوريات مفككة وحضارات ميتة، روح حياة جماعية جديدة، وأعاد إلى الناس ومجتمعاتهم أبعادهم الإنسانية والإلهية من تسام وتوحد. كما أعاد خميرة تجديد العلوم والفنون والحكمة التنبؤية والقوانين).[3]

وتساءل غارودي (لقد أنقذ الإسلام في القرن السابع الميلادي، إمبراطوريات كبيرة متهاوية، فهل يستطيع اليوم أن يحمل لنا جواباً عن قلق ومشاكل الحضارة الغربية؟ هذه هي المسألة التي يجهد هذا الكتاب – وعود الإسلام – في طرحها إذا لم يكن في حلها!).[4]

أما في كتابه (الإسلام في الغرب) فهو ينطلق من فكرة يحاول أن يعيد من خلالها قراءة بداية تاريخ النهضة في أوروبا، وحسب تصوره فإن نهضة أوروبا الأولى لم تبدأ في إيطاليا، وإنما في أسبانيا خلال القرن الثالث عشر.. النهضة التي كانت وعداً مشرقاً في أسبانيا، وكان لها اتجاه معاكس ومختلف عن نهضة القرن السادس عشر في إيطاليا، ونهضة القرن السابع عشر في إنكلترا، ونهضة القرن التاسع عشر في فرنسا، ونهضات القرنين الأخيرين في الغرب.[5]

ويختتم غارودي كتابه وفي السطر الأخير منه، بأمل أن تعطي الأندلس وقرطبة للعالم ثانية رسالة عصورها

---

[2]–روجيه غارودي. وعود الإسلام، بيروت: الدار العالمية، 1984م، ص19.

[3]–روجيه غارودي. المصدر نفسه، ص19.

[4]–روجيه غارودي. المصدر نفسه، ص25.

[5]–روجيه غارودي. الإسلام في الغرب: قرطبة عاصمة الروح والفكر، ترجمة: د. محمد مهدي الصدر، بيروت: دار الهادي، 1991م، ص14.251.

الذهبية، رسالة حضارة الكوني الشمولي.[6] ويستشهد في كتابه (وعود الإسلام) برأي المستشرق الهولندي دوزي (1820-1883م) الذي عرف باهتمامه بحضارة العرب، في كتابه (تاريخ مسلمي أسبانيا)، حيث يرى أن الفتح العربي كان خيراً لأسبانيا، لأنه أحدث ثورة اجتماعية هامة، وقضى على قسم كبير من الشرور التي كانت ترزح البلاد تحتها منذ قرون.[7]

ومع أن غارودي كان ينطلق من مقولة حوار الحضارات في توجيه النقد التاريخي والفلسفي والاجتماعي للغرب، إلا أنه كان متوجهاً إلى الغرب في خطابه وليس للحضارات الأخرى، وأن الغرب هو المعني بهذه الدعوة لحوار الحضارات، بقصد تصحيح مساراته بعد أن وصل إلى مأزق حضاري خطير.

فقد اكتشف غارودي بفكره النقدي، ومعرفته الواسعة، وانفتاحه على الثقافات غير الأوروبية، وجود أزمة حضارية عميقة في الغرب والحضارة الغربية، ولا سبيل لتجاوز هذه الأزمة وتداركها في نظره، إلا بالانفتاح على الحضارات الأخرى غير الأوروبية، والتحاور معها، والتعلم منها، لاكتشاف ما يسميه بالفرص المفقودة، والأبعاد الإنسانية والأخلاقية المطلوبة، التي نمت في الحضارات والثقافات غير الأوروبية.

وهذه الأزمة التي يعيشها الغرب في الربع الأخير من القرن العشرين، إنما ترجع في جذورها حسب رأي غارودي، إلى عصر النهضة، الذي ولدت معه الرأسمالية والاستعمار معاً، وما صاحبه من تنكر وهدم لجميع الثقافات غير الأوروبية، فقد اتبعت الحضارة الغربية في نموها وتقدمها من القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن العشرين، طريقة أوصلتها كما يعتقد غارودي، إلى أزمة داخلية عميقة، حدودها في ثلاثة أبعاد رئيسية، شرحها في كتابه: (حوار الحضارات)، وهي:

1. رجحان جانب الفعل والعمل، بالشكل الذي يتحول فيه الإنسان إلى مجرد آلة للإنتاج والاستهلاك، ويفقد جوهره المعنوي والأخلاقي.
2. رجحان جانب العقل، واعتباره قادراً على حل جميع المشكلات، بحيث لا توجد مشكلات حقيقية إلا تلك التي يستطيع العلم حلها، والنتيجة بعد ذلك هي عدم القدرة على تحديد الغايات الحقيقية، والسيطرة على الوسائل.
3. رجحان جانب الكم، وجعله معياراً ومقياساً لا نهائياً، بحيث يصبح النمو باعتباره نمواً كمياً صرفاً في الإنتاج والاستهلاك.

ويرى غارودي أن حضارة تقوم على هذه الأبعاد الثلاثة، إنها حضارة مؤهلة للانتحار.

وعلى ضوء هذا التحليل لأزمة الثقافة والحضارة الغربية، بلور غارودي نظريته لحوار الحضارات، ناظراً بها إلى الغرب، بوصفها طريقاً لإنقاذه وتصحيح مساراته، وتشكلت هذه النظرية على أساس المرتكزات التالية:

---

[6]-روجيه غارودي. المصدر نفسه، ص252.

[7]-روجيه غارودي. وعود الإسلام، مصدر سابق، ص51.

1. الاهتمام بالحضارات اللاغربية في مجال الدراسات، وجعلها بمنزلة تعادل في أهميتها الثقافة الغربية.
2. ضرورة أن يشغل مبحث الجمال، منزلة يعادل في أهميته تعليم العلوم والتقنيات.
3. جعل الاهتمام بالمستقبل، يعادل في أهميته من حيث التفكير والغايات والأهداف أهمية التاريخ وعلم التاريخ.[8]

هذه النظرية التي كونها غارودي لحوار الحضارات، أراد بها أن يخاطب الغرب بصورة أساسية، لذلك فهي تنتمي وتصنف على النظريات الغربية، التي تنطلق من نقد التجربة الغربية والحضارة الغربية، ويعبر غارودي عن ذلك بقوله أن (حوار الحضارات أصبح ضرورة عاجلة لا سبيل لردها، إنه قضية بقاء، لقد بلغنا حد الخطر، بل لعلنا تجاوزناه، إن مهمتنا بعد الفرص التاريخية الضائعة، وضياع أبعاد الرجل الغربي، هي استئناف حوار حضارات الشرق والغرب، من أجل وضع حد لحوار الذات الغربي الانتحاري.. إدراك هذا النقص، وإدراك ما ندين به للثقافات والحضارات غير الغربية، هو اليوم على ما نظن السبيل الوحيد الذي بقى مفتوحاً أمامنا خارج مأزق الموت).[9]

وكون هذه النظرية تنتمي وتصنف على النظريات الغربية، لا يعني ذلك بالضرورة نقداً لها، أو رفضاً أو إسقاطاً، وإنما القصد هو تحديد طبيعة الفضاء المعرفي والمرجعي لهذه النظرية، وفهم غاياتها ومقاصدها، وكيفية التعامل معها.

وبالتالي لا يمكن الرجوع إلى هذه النظرية، إلا في إطار التثاقف والتواصل الفكري والمعرفي، وليس الاعتماد عليها بوصفها نظرية كونية عامة، أو باعتبارها قابلة للتعميم على المستوى الإنساني، مع أنها قد تعد من أنضج النظريات في مجالها، وأكثرها دعوة للانفتاح والتواصل مع الثقافات والحضارات الأخرى غير الأوروبية.

ولعله إلى اليوم لم تتبلور نظرية أخرى لحوار الحضارات، في مستوى نظرية غارودي وتماسكها وخبرتها ودرجة انفتاحها، كما نظر لها وشرحها في كتابه الشهير: (حوار الحضارات)، وتمثلها في تجربته الفكرية، وفي الأطوار والانتقالات التي مر بها من المسيحية إلى الماركسية، ومن ثم إلى الإسلام، فلم يكن غارودي مجرد داعية لحوار الحضارات، بل كان مثالاً تطبيقياً لهذه الدعوة في تجربته الفكرية.

هذا هو المأخذ الرئيسي على رؤية غارودي لحوار الحضارات لكونها تستجيب بصورة أساسية لحاجات الغرب ومشكلاته، باعتبارها ناظرة إليه، ولا تلبي من جهة أخرى حاجات الحضارات غير الأوروبية.

أما قيمتها الرئيسية فهي في النقد الذي وجهه غارودي للغرب، وأراد منه أن يدفعه لمراجعة ذاته وتراثه وتاريخه، وأن يغير من نظرته إلى العالم، ويدخل في مصالحة مع الحضارات غير الغربية، والاستفادة والتعلم منها، واكتشاف مستقبله المشترك مع بقية العالم، وليس مستقبله الذي لا يرى فيه إلا ذاته. وقيمة هذا النقد أنه يأتي من مفكر غربي واسع الثقافة والمعرفة، ومنفتح على الثقافات والحضارات غير الأوروبية، وقد تمثل حوار الحضارات في تجربته الفكرية بتحولاته وتقلباته وانتقالاته.

وكان بالامكان لأفكار غارودي أن تكون لها فاعلية وشأن، لو انفتح الغرب عليها، وقبل الإصغاء إليها، وتفهمها. مع ذلك فقد بقيت أطروحة غارودي مجرد دعوة لم تتحول إلى تيار فاعل ومؤثر في الغرب والثقافة

---

[8]–روجيه غارودي. حوار الحضارات، ترجمة: عادل العوا، بيروت: منشورات عويدات، 1987م، ص186.

[9]–روجيه غارودي. المصدر نفسه، ص23.

الغربية، حتى مع محاولته لإنشاء معهد دولي لحوار الحضارات سنة 1976م، وسعيه بعد ذلك لإحياء مشروع قرطبة كمركز إشعاعي حضاري جديد في الغرب، إلا أن هذه الأفكار بقيت مجرد طموحات وآمال غاية في النبل.

ومع دخول العالم حقبة ثمانينيات القرن العشرين تراجعت الدعوة إلى حوار الحضارات، وظهرت ما سميت في الخطاب الغربي والإعلام الغربي بالأصوليات، وارتفعت درجة الاحتكاك والتوتر بين العالمين الإسلامي والغربي، وفي هذا السياق نشر غارودي كتابه (الأصوليات المعاصرة. أسبابها ومظاهرها)، حيث اعتبر فيه أن الأصوليات كل الأصوليات، تشكل الخطر الأكبر على عصرنا وعلى المستقبل.

وحتى في هذا الكتاب لم يغفل غارودي عن توجيه النقد للغرب، بتحميله مسؤولية انبعاث هذه الأصوليات بكل أشكالها في العالم الثالث، نتيجة إصراره على فرض نموذجه الإنمائي والثقافي، واعتبر الأصولية الغربية هي العلة الأولى التي ولدت كل الأصوليات الأخرى رداً على أصولية الغرب، وتحدياً لها.

2. هنتنغتون وصدام الحضارات

الزمن الثاني: يتحدد مع ظهور مقولة صدام الحضارات التي بشر بها صمويل هنتنغتون في صيف 1993م، على صورة مقالة قصيرة نشرها في مجلة (الشؤون الخارجية)، الأمريكية، ومن ثم حولها إلى كتاب موسع صدر سنة 1996م بعنوان (صدام الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي).

ومنذ ذلك الوقت والجدل يحتدم حول هذه المقولة الجدلية بين الكتاب والأكاديميين والسياسيين، وتحولت إلى واحدة من أنشط الأفكار تداولاً ونقاشاً وسجالاً في مختلف مراكز العالم، وذلك بسبب طبيعتها التحريضية، وبنيتها التفسيرية، ورؤيتها التشاؤمية، ولأنها جاءت في وقت دخل العالم فيه مرحلة ما بعد الحرب الباردة، فكانت التطلعات باتجاه إزالة المخاوف من إمكانية وقوع الحروب، ووقف سباق التسلح العالمي، وتوازنات الردع النووي، التي جعلت المجتمع الدولي يعيش حالة من الرعب، وبدل الشعور بالتفاؤل جاءت هذه المقولة لكي تبعث التشاؤم المخيف، وتبشر بحرب باردة بين الحضارات، هي أشدّ خطورة مما كانت بين الدول في المرحلة السابقة.

لا شك أن هذه المقولة تمثل ارتداداً واضحاً على مقولة حوار الحضارات، وعلى ذلك النسق من الدراسات والأبحاث المقارنة لتاريخ الحضارات التي كرست مفاهيم التفاعل والتواصل والتعاقب، وتنتمي هذه المقولة لنسق آخر من الدراسات الغربية، ذلك النسق الذي اتصف بالتحيز المفرط، وإظهار النزعة العدائية إلى الآخر الحضاري، ومحاولة التوظيف اللاأخلاقي، وقد ارتبط هذا النسق في وقت سابق بعلاقات مباشرة مع مؤسسات التبشير، وأجهزة الاستعمار الأوروبي، ومن صوره ما تجلى في دراسات بعض المستشرقين التي تصنف على الاستشراق التقليدي، ودراسات بعض الأنثروبولوجيين التوظيفية.

ومن جهة أخرى تنتمي هذه المقولة إلى حقل العلوم السياسية، وعلم السياسة الأمريكي بشكل خاص، وقد ارتبطت هذه المقولة بأسماء مفكرين يصنفون مهنياً وأكاديمياً على هذا الحقل، وينتمون إلى المدرسة الأمريكية في علم السياسة.

وإذا كان هنتنغتون هو الذي عرف واشتهر بهذه المقولة، إلا أن هناك من سبقه إليها، بطرح مماثل في

التحليل والتفسير والاستشراف، كأستاذ الدراسات الدورية بجامعة وور ويك البريطانية باري بوزان، الذي نشر مقالة بمجلة (الشؤون الدولية) الأمريكية في يوليو 1991م، حملت عنوان (السياسة الواقعية في العالم الجديد.. أنماط جديدة للأمن العالمي في القرن الواحد والعشرين)، توصل فيها إلى ما اصطلح عليه بتصادم الهويات الحضارية المتنافسة، وبالذات بين الغرب والإسلام.

وفي نظر بوزان إذا اجتمع خطر الهجرة، وخطر تصادم الثقافات أصبح من السهل وضع تصور لنوع من الحرب الباردة الاجتماعية بين المركز وجزء من الأطراف على الأقل، ولا سيما بين الغرب والإسلام. فالهجرة حسب رأيه من الجنوب إلى الشمال، وبكيفية خاصة من جنوب البحر المتوسط إلى شماله، تشكل خطراً على أمن دول المركز، إذ تهدد هويتها الحضارية.

والتصادم الحضاري هو أوضح ما يكون حسب رؤية بوزان بين الغرب والإسلام، نظراً للتعارض بين القيم العلمانية السائدة في الغرب وبين القيم الإسلامية، وللتنافس التاريخي بين المسيحية والإسلام، ولغيرة المسلمين من قوة الغرب، إضافة إلى الجوار الجغرافي.

والذي يختلف فيه بوزان عن هنتنغتون أنه يضيف الحضارة الهندية إلى جوار الإسلام في الحرب الباردة الحضارية مع الغرب، في حين يضيف هنتنغتون الحضارة الصينية الكونفوشية مكان الحضارة الهندية.[10]

أما الذي يمكن أن يصنف مرجعاً لمثل هذه الآراء والأفكار فهو المستشرق والمؤرخ المعروف برنارد لويس أستاذ تاريخ الشرق الأدنى في جامعة برينستون إحدى أهم الجامعات الأمريكية السبع، ومع أنه معروف بتحيزه لآراء وأفكار وتحليلات معارضة للإسلام والعرب، مع ذلك يعتبر من أهم المؤرخين في كتابة تاريخ الشرق الأدنى الحديث والمعاصر، ولعله في نظر البعض يمثل آخر المستشرقين الذين يمثلون المدرسة الكلاسيكية.

وقد شبه إدوارد سعيد هنتنغتون ببرنارد لويس في موقفه بانتقاء المصادر التي تناسبه في سرد تاريخ الشرق الأوسط والإسلام، واعتبر محمد عابد الجابري آراء هنتنغتون بأنها مماثلة لآراء روّج لها برنارد لويس ويميل إليها هنتنغتون نفسه.

ولعل ما تميز به هنتنغتون في هذا الشأن، هو أنه استطاع تحريك هذه المقولة في المسرح الدولي، وقام بتعميمها على نطاقات واسعة، وظل يدافع عنها، ويحرض عليها. وفي نظر الكاتب الأمريكي جيمس كورت وهو يجيب على سؤال حول الصراعات السياسية الرئيسية التي سيشهدها المستقبل؟ في نظره (هذا هو السؤال الذي يفرض نفسه على الجدل الدائر حول الشؤون الدولية، وقد جاءت أكثر الإجابات شمولاً وإثارة للجدل من جانب صمويل هنتنغتون، الذي فجر مفهومه حول تصادم الحضارات صداماً كبيراً بين الكتّاب).[11]

إن اختلاف موقف هؤلاء الذين يقولون بصدام الهويات، أو صدام الحضارات، أو الصدام بين الإسلام

---

[10]- محمد عابد الجابري. قضايا في الفكر المعاصر، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1997م، ص90.

[11]-جيمس كورت. تصادم المجتمعات الغربية: نحو نظام عالميجديد، مجلة الثقافة العالمية، الكويت، السنة الثالثة عشرة، العدد 77، يوليو 1996م، ص7.

والغرب، عن أولئك الذين يتحدثون عن تعاون الثقافات أو حوار الحضارات، يعود إلى طبيعة المنظور وطرائقه التوصيفية والتحليلية والتفسيرية، والذي ينقسم هنا إلى منظورين: منظور يستند على البحث التاريخي المعرفي كما هو عند توينبي، أو البحث الأنثروبولوجي كما عند شتراوس، أو البحث عن الفلسفة الأخلاقية كما هي عند اشفيتسر.

ومنظور يستند على السياسة والأمن والدفاع، وهو المنظور الذي أوصل بوزان ولويس وهنتنغتون إلى فكرة صدام الهويات عند بوزان، وصدام الحضارات عند هنتنغتون، والصدام بين الإسلام والغرب عند لويس.

وهذا المنظور الذي ينطلق من علم السياسة، من طبيعة حقله وأدواته التعامل مع أفكار ونظريات حول الصراع أو القوة أو النزاع أو السيادة في نطاق ما يعرف بالجغرافيا السياسية، الأمر الذي يجعل من فكرة الصراع أو الصدام حاضرة في منهجيات النظر والتحليل والتفسير.

وهذا ما وقع فيه هنتنغتون الذي كرس حياته المهنية والأكاديمية في مجال الدراسات السياسية والاستراتيجية، فهو أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد، ومدير معهد الدراسات الاستراتيجية فيها أيضاً، ومدير أكاديمية هارفارد للدراسات الدولية والإقليمية، ورئيس الجمعية الأمريكية للعلوم السياسية، وكان مسؤولاً عن التخطيط بمجلس الأمن القومي في إدارة الرئيس السابق جيمي كارتر.

ومن جوانب النقد الأساسية التي وجهت لهنتنغتون، هو أنه ينطلق من مفهوم الدولة كما تحدد في علم السياسة، وليس من مفهوم الحضارة كما تحدد في علم التاريخ والبحث التاريخي، لذلك فإن مقولته هي أقرب إلى النظريات السياسية، والتي تنطلق من بواعث سياسية ولمقاصد سياسية.

ولقد استفزت هذه المقولة المجتمع الدولي، وكانت الباعث الأساسي لإحياء مقولة حوار الحضارات، باعتبارها الطرف النقيض من جهة، ولكونها تمثل الطرح الإيجابي البديل عن لتلك المقولة.

3. الأمم المتحدة وحوار الحضارات

الزمن الثالث: إذا كان هذا الزمن يتصل بالزمن الثاني ويتأثر به، إلا أنه يختلف ويفترق عنه في مستويات الاهتمام، وديناميات التطور، وطرائق التعاطي. ويؤرخ لهذا الزمن بموافقة الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الثالثة والخمسين لسنة 1998م، على اقتراح باختيار سنة 2001م سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات، وهو الاقتراح الذي تقدم به السيد محمد خاتمي رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية آنذاك، في خطابه الذي ألقاه بالجمعية العامة للأمم المتحدة في أغسطس 1998م.

والخلفيات التي أشار إليها قرار الأمم المتحدة بهذا الشأن، تنتمي وتتوافق مع أفكار وتصورات أولئك المفكرين والمؤرخين أصحاب النزعة الأخلاقية والإنسانية في البحث التاريخي والأنثروبولوجي، الذين يؤكدون على مفاهيم تنوع الثقافات، وتعدد الحضارات، والنظر لهذا التنوع والتعدد بوصفه مصدر إثراء واستلهام يبعث على التقدم والتواصل بين الأمم والحضارات.

وعن هذه الخلفيات، وتعزيزاً لهذا الاختيار، شرح قرار الأمم المتحدة رؤيته لحوار الحضارات منطلقاً من (الإقرار

بالإنجازات الحضارية المتنوعة للبشر، وضرورة بلورة ثقافة تعددية، والقبول بتنوع المخلوقات البشرية، والأخذ بعين الاعتبار أن التعاملات الثنائية بين الحضارات على امتداد التاريخ الإنساني، كانت مستمرة على الرغم من وجود الموانع النابعة من عدم التسامح والنزاع والحروب، ومع التأكيد على أهمية التسامح في العلاقات الدولية، والدور الرفيع للحوار بمثابة أداة للوصول إلى التفاهم وإزالة تهديدات السلام وتعزيز التعامل والتبادل بين الحضارات.. ومع إعادة التأكيد بأن الإنجازات الحضارية تشكل ميراثاً مشتركاً للبشرية جمعاء، وتهيئ مصدراً لسمو البشرية وتقدمها. والترحيب بالمساعي الجماعية للمجتمع الدولي، وباتجاه مزيد من التفاهم من خلال الحوار البناء بين الحضارات على عتبة الألفية الثالثة، تعلن عن عزمها الراسخ على تسهيل وترويج الحوار بين الحضارات).

هذا التبني من طرف الأمم المتحدة ساهم بصورة فاعلة وكبيرة في تحريك وتعميم مفهوم حوار الحضارات، وتحويله إلى مفهوم متحرك في مجال العلاقات الدولية، بطريقة بات يأتى على ذكره في المناسبات والاجتماعات الدولية، ويشار إليه في البيانات والتقارير الإقليمية والعالمية، وعقدت حوله الكثير من الندوات والمؤتمرات التي توزعت في دول العالم المختلفة، بحيث يمكن القول أنه لأول مرة يجري هذا المستوى من الاهتمام العالمي بقضية حوار الحضارات.

من جهة أخرى أن اختيار سنة 2001م تحديداً، كان بقصد أن يستقبل العالم الألفية الثالثة بنوع من التفاؤل والثقة والشعور بالأمن والسلام، والاندفاع نحو تجديد وتطوير العلاقات الدولية بين الأمم والشعوب، وليكون قرناً مختلفاً عن القرن العشرين الذي عد قرن الحروب الكبرى، حيث بدأ بحرب عالمية مدمرة في أوروبا، هي الحرب العالمية الأولى سنة 1914م، وانتهى بحرب عالمية مدمرة أخرى في الشرق الأوسط، وهي حرب الخليج الثانية سنة 1990م.

والتطور المهم الذي حصل في هذا الشأن مع مبادرة الأمم المتحدة، هو إحياء مفهوم حوار الحضارات، وتجديد العمل به في مجال العلاقات الدولية، واستخدامه في نقد وتقويض ومحاصرة مقولة صدام الحضارات، وبناء تراكمات فكرية وثقافية حوله، وفتح أوسع نقاش دولي عابر للثقافات والقوميات واللغات حوله، والتأكيد على بناء الجسور وتعزيز الحوار بين الحضارات.

4. الحادي عشر من سبتمبر وحوار الحضارات

الزمن الرابع: بدأ مع حدث الحادي عشر من سبتمبر 2001م، الحدث الذي أصاب العالم بهزة عنيفة غيرت من صورته، وقلبت معادلاته وتوازناته، وأصبح الحدث الذي تؤرخ به الألفية الثالثة الجديدة، وتأثرت به التطورات والتغيرات اللاحقة، وما زالت تتأثر به، وقد اعتبر المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية بلندن في تقريره السنوي حول التوازن العسكري في العالم، أن عهداً استراتيجياً جديداً قد بدأ منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

فقد دفعت هذه الأحداث العالم ليعيش في أشد حالاته انفعالاً وتوتراً واضطراباً، وهيمنت عليه مفاهيم العنف والإرهاب والقوة، وأصبح المجتمع الإنساني لأول مرة وكأنه يعيش صدام حضارات، المفهوم الذي أخذ العالم

يتداوله على أوسع نطاق، وكأن هنتنغتون صدق في نبوءته حين بشر بهذا المفهوم عام 1993م، وأكده عام 1996م.

وفي الجانب الآخر، فإن هذه الأحداث لفتت انتباه العالم مجدداً، وبالذات في العالم العربي والإسلامي إلى مفهوم حوار الحضارات، المفهوم الذي أصبح له واقع فعلي، ولم يعد كما كان قبل هذه الأحداث مجرد مفهوم يعبر عن فهم أخلاقي نبيل، وعن طموحات ورغبات مثالية لا واقع لها ولا مصير.

ولهذا فإن الربع الأخير من سنة حوار الحضارات، وتحديداً بعد أحداث سبتمبر شهد العالم العربي أوسع نشاط واهتمام بهذا المفهوم، ولأول مرة في تاريخ الجامعة العربية تدعو إلى عقد مؤتمر فكري حول حوار الحضارات، وبقدر ما لفتت هذه الأحداث الأنظار لمقولة هنتنغتون في صدام الحضارات، لفتت الاهتمام أيضاً إلى دعوة السيد خاتمي في حوار الحضارات، وأكدت قيمة هذه الدعوة والحاجة إليها في استشراف المستقبل.

ومع هذه الأحداث كانت البداية الفعلية لحوار الحضارات على مستوى العالم، مع ذلك لم يحصل أي تقدم في صياغة نظرية أو بلورة خطاب متقن ومتماسك، إذ بقي هذا المفهوم يوجه لوظيفة دفاعية، الغرض منها مواجهة التشويهات والإسقاطات التي تعرضت لها الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية، في أوسع حملة تشويهية تحصل في الغرب خلال نصف قرن.

وحسب هذه المهمة فقد تحول مفهوم حوار الحضارات إلى أشبه ما يكون بمفهوم إعلامي يستهلك على نطاق واسع في وسائل الإعلام المختلفة والمتعددة، من دون أن يرتكز هذا المفهوم ويستند على بناء فكري وتاريخي عميق ومنظم، ومن دون أن يكون له تأثيرات فاعلة وحقيقية في تغيير المفاهيم والذهنيات، وتبديل الاتجاهات والسياسات العامة، لا في النطاقات الإقليمية، ولا في النطاقات العالمية، وبالتالي فهو أقرب ما يكون إلى مجرد مفهوم ساحر وجذاب، يغري الآخرين بالحديث عنه وحوله، والتباهي به، من دون أن يكون له فاعلية أو تأثير.

5. حوار الحضارات.. فحص ونقد

مع التداول الواسع لمفهوم حوار الحضارات، دخل هذا المفهوم دائرة الفحص المعرفي، للنظر في بنيته وتركيبته اللغوية والمعرفية، وهذه هي أول مرة يحصل فيها فحص هذا المفهوم في المجال العربي.

ونتيجة لهذا الفحص بدأ النقد يتجه لهذا المفهوم، ويتعدد في جهات مختلفة، منها ما يتصل بتركيبة المفهوم وطريقة اختراعه وصياغته، ومنها ما يتصل بإمكانية تطبيق هذا المفهوم والالتزام به فعلياً، ومنها ما يتصل بطبيعة الأرضيات والسياقات الموضوعية وهل هي مساعدة في تقبل هذا المفهوم وتحريكه أم لا!

فمن جهة تركيبة هذا المفهوم وطريقة صياغته واختراعه، فقد أطلت التأمل والتفكير فيه كثيراً، وكنت أتساءل كيف يمكن للحضارات أن تتحاور؟ حتى يصح استعمال مصطلح حوار الحضارات، هل عن طريق ممثلين ومفوضين عن الحضارات لهم صفة قانونية أو اعتبارية! لكنني وجدت أنه لم تحصل سابقة بهذا الشأن، لأن كل حضارة فيها من الانقسامات والتعدديات الدينية والمذهبية، العرقية والقومية، اللغوية واللسانية، ما يجعل من الصعوبة القيام بمثل هذا الدور.

من جهة ثانية إن السائد حالياً في مجال العلاقات الدولية هو مفهوم الدولة وليس مفهوم الحضارة، والعلاقات بالتالي هي علاقات بين دول وليس بين حضارات، والتمثيل والتفويض لو حصل فرضاً بين المجموعات الحضارية فهو أقرب ما يكون إلى تمثيل دول وليس حضارات.

إلا أن نقول بأن ما يجري في الجمعية العامة للأمم المتحدة التي تضم دولاً من مختلف الحضارات والثقافات والقوميات والديانات هو الذي يمثل الصورة الفعلية لحوار الحضارات، حتى لو سلمنا بهذا الفرض وهو أقرب الفروض استباقاً إلى الذهن، إلا أن ما يجري هناك ليس مبرمجاً لهذا الغرض، وحينما طالبت إيران بأن يكون لدول المجموعة الإسلامية ممثل دائم بمجلس الأمن اعترضت مصر على هذا الاقتراح، لأن التمثيل حسب رأيها لا يخضع لموجبات أو معايير دينية.

يضاف إلى ذلك أن الدراسات والأبحاث التاريخية والأنثروبولوجية المقارنة للحضارات، لم تستعمل مصطلح أو تسمية حوار الحضارات، وهي الدراسات التي بحثت مختلف أشكال وصور العلاقات بين الحضارات، إذ استعملت تسميات أخرى، كتعاون الثقافات عند شتراوس، وتفاعل الحضارات عند قسطنطين زريق، إلى غير ذلك من تسميات، الأمر الذي يدعو إلى مساءلة لتسمية حوار الحضارات.

وحين توقف الدكتور محمد عابد الجابري أمام هذه المفهوم، الذي وصفه بالشعار وجد أن هذا الشعار هو في جميع الأحوال مفعم بالغموض والالتباس.. والذين يرفعونه واقفون عند منطوقه حيث ينطوي موقفهم على نوع من الغفلة، ذلك لأن الحوار بين الحضارات إما أن يكون عفوياً تلقائياً نتيجة الاحتكاك الطبيعي فيكون عبارة عن تبادل التأثير، عن أخذ وعطاء، بفعل الصيرورة التاريخية. وهذا النوع من تلاقح الحضارات لا يحتاج إلى دعوة، ولا يكون بتخطيط مسبق، بل هو عملية تاريخية تلقائية.[12]

وهذا النقد لمفهوم حوار الحضارات يعتبر جديداً في الكتابات العربية، وهو ناشئ كما أشرت عن التداول الواسع لهذا المفهوم، الأمر الذي اقتضى فحصه وإعادة النظر فيه.

أما فيما يتصل بجانب القدرة والفاعلية والتأثير لهذا المفهوم وإمكانية تطبيقه والالتزام به، فيمكن القول أن هذا المفهوم لن تكون له القدرة الفاعلة في التأثير على مجرى السياسات العالمية، وعلى بنية وأنماط العلاقات الدولية، وذلك لشدّة تعقيداتها وتناقضاتها، وتضارب مصالحها السياسية والاقتصادية والأيديولوجية.

لهذا السبب فإن مقولة صدام الحضارات هي أقرب إلى روح العالم المعاصر بمعادلاته ومكوناته وعناصره القائمة، والمحكوم بذهنية الهيمنة والسيطرة والاستقطاب. وهي الوضعيات التي كوّن منها هنتنغتون مقولة صدام الحضارات، وأراد منها حسب رأيه أن تكون مقولة تفسيرية وليس تقريرية، كما فهم منتقدوه في رده عليهم.

وحينما كان بطرس بطرس غالي أميناً عاماً للأمم المتحدة أعلن سنة 1995م (إن بعض الدول اعتقدت أن بإمكانها الاسترخاء بعد الانتصار في الحرب الباردة، وهي تكتشف أنه على العكس من ذلك، فإن الحرب الباردة

---

[12]–محمد عابد الجابري. قضايا في الفكر المعاصر، مصدر سابق، ص130.131.

حالت دون وقوع أو أخفت 30 حرباً صغيرة نواجهها اليوم.. وإن العالم يمر بفترة أصعب من الفترة التي شهدها خلال الحرب الباردة، والأمم المتحدة غير قادرة على حل جميع المشاكل).

وفي مؤتمر الأمم المتحدة الثالث حول الدول الأقل تقدماً، الذي عقد في بروكسل سنة 2001م، قال الأمين العام السابق للأمم المتحدة كوفي عنان في كلمة الافتتاح: إن هذا المؤتمر هو الثالث الذي ينعقد في غضون 20 عاماً، وبدلاً من أن تنخفض لائحة الدول الأقل تقدماً، فإنها قد ازدادت، وبحسب أرقام الأمم المتحدة فإن عدد الدول الأقل تقدماً قد ارتفع من 21 دولة في العام 1971م إلى 49 دولة اليوم.

وأما من جهة الأرضيات والسياقات، فليست هناك إمكانيات فعلية للنهوض بحوار بين الحضارات، لأن الغرب الذي يفترض فيه أن يكون طرفاً أساسياً في أي حوار من هذا المستوى، ليس على استعداد لأن يدخل في حوار متكافئ مع الحضارات الأخرى، وهو صاحب الحضارة الغالبة والمهيمنة على العالم، والمستحوذة على ثرواته، ولا يرى نفسه معنياً بهذا الحوار أساساً، وقد ظل يتعامل مع الحضارات الأخرى بنوع من التعالي المفرط، وتاريخه القديم والحديث والمعاصر خير شاهد على ذلك.

وحتى الحضارات الأخرى فليست لديها القدرة والإقناع في أن تدخل في حوار متكافئ أو متوازن، أو في شراكة فعلية أو عادلة مع الغرب، ما لم يقتنع الغرب بتقدمها وتفوقها، وبالحاجة إليها وإلى شراكتها الحضارية.

وقد توقف غارودي كثيراً أمام هذه الإشكالية، حيث وجد فيها العقبة الرئيسية التي تقف في وجه علاقة الغرب بالعالم والحضارات غير الغربية، وحسب رأيه أن الغرب قد صادر المعرفة العالمية، وأباح لنفسه تحديد مواقع الآخرين، والحكم عليهم، وفقاً لتاريخه وغاياته وقيمه،[13] ويرى أن المشكلة الأساسية في الثقافة الغربية الحاضرة، هي في أن نقضي على التصور التسلطي في الثقافة الغربية، والاستعاضة عنه بتصور يتطلع بأسئلته إلى حكمة العالم اللاغربي.. وذلك لا يمكن إلا بالانخراط في حوار حضارات حقيقي مع الثقافات غير الغربية.[14]

ومن وجهة نظر الجغرافي والمؤرخ الفرنسي رولان بريتون فإنه يرجع هذه الإشكالية في ذهنية الغرب إلى منشأ تصور الأوروبيين لمفهوم الحضارة والثقافة، حيث يرى أنه (في ذروة العصر الذي كان الأوروبيون يهيمنون فيه على العالم، فكرياً وسياسياً، جرى تصور الحضارة أولاً بصيغة المفرد، وكذلك الحال بالنسبة إلى الثقافة.. وفي الوقت الذي كانت أوروبا تبتكر كلمة حضارة كانت تكتشف المتوحشين أيضاً. فكانت تقوم بجردة للعالم، غير المغلق حقاً بعد، وباستشراف للبشرية التي لا يزال الجدال دائراً حولها، وكان التعارض الأساسي بين الطبيعة والثقافة قد سمح بفرز أولي مختصر بين شعب طبيعي أو ثقافي، أي بين شعب بدائي أو متحضر.[15]

ما يريد أن يقوله بريتون هو أن الأوروبيين تكونت نظرتهم إلى العالم من خلال مفهوم للحضارة يكاد يتحدد فيهم وينحصر عندهم، ونقيض الحضارة في تصورهم هو التوحش أو البدائية، الوصف الذي يطلقونه على

---

[13]–روجيه غارودي. وعود الإسلام، ص237.

[14]–روجيه غارودي. حوار الحضارات، مصدر سابق، ص93.

[15]–رولان بريتون. جغرافيا الحضارات، ترجمة: د. خليل أحمد خليل، بيروت . باريس: منشورات عويدات، 1993م، ص20.21.

من يكون في الطرف المغاير لهم.

من جهة أخرى، فإن الغرب شديد الحذر من أي تقارب أو توافق يحصل بين الحضارات، خصوصاً إذا كان الإسلام طرفاً فيها، خوفاً أو توهماً من تحول هذا التقارب أو التوافق إلى نوع من التحالف المتعارض مع الغرب، وهذا ما حذر منه بوزان الذي كشف عن خشية من حصول توافق بين الإسلام والحضارة الهندية، أو بين الإسلام والحضارة الصينية كما في رؤية هنتنغتون.

مع كل ذلك سوف يظل العالم يتطلع إلى حوار الحضارات، كدعوة أخلاقية وإنسانية نبيلة.

6. تعارف الحضارات

كانت للمسلمين تجربتهم في بناء الحضارة والعمران الإنساني، وتكونت لهم معرفة وخبرة في هذا الشأن، وأن الإسلام في نظر برنارد لويس أول من سعى إلى العالمية، فالحضارات القديمة للبحر المتوسط والشرق الأوسط ولأوروبا والهند والصين، كانت محلية، وإقليمية في أحسن حال كما يقول لويس الذي اعتبر أن (المسيحية والإسلام على السواء انفتحا على مهمة عالمية، فالمسكونية الإسلامية امتدت على أجزاء كبيرة من آسيا وأفريقيا وأوروبا، وكانت البادئة في إيجاد حضارة متعددة الأعراق، ومتعددة الثقافات، وإلى حد ما متعددة القارات. فقد امتدت الحضارة الإسلامية إلى أبعد بكثير من أقصى حدود وصلتها الثقافتان الرومانية والهيلينية، وقدرت بذلك على اقتراض عناصر مميزة من حضارات أكثر بعداً في آسيا ثم تبنيها وإدماجها).[16]

لهذا يفترض أن يكون للتصور الإسلامي رؤية أو مفهوم يحدد شكل العلاقات مع الأمم والمجتمعات والحضارات الأخرى، والمفهوم الذي نتوصل إليه في هذا المجال، ونزداد ثقة به، وبقيمته المعرفية والأخلاقية والإنسانية هو مفهوم (التعارف)، ومنشأ هذا المفهوم القرآن الكريم الذي خاطب الناس كافة، وجاء رحمة للعالمين، وكشفت عنه آية التعارف في قوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا).[17]

وهذه الآية تحديداً من أكثر آيات القرآن الكريم التي تكرر ذكرها والحديث عنها، والالتفات إليها في الكتابات العربية والإسلامية، منذ أن تجدد الحديث حول حوار الحضارات، الأمر الذي يجعلها ذات علاقة بهذا الشأن.

وقد استشهد بهذه الآية الدكتور حسين مؤنس في كتابه (الحضارة)، الذي تحدث فيه عن أصول الحضارة وعوامل قيامها وتطورها، وذلك في سياق حديثه عن علاقة الحضارة بالأجناس، وما توصل إليه المؤرخون الغربيون بعدم حصر القدرة على بناء الحضارة بأجناس معينة، وأن الحضارات إنما قامت بمشاركة أجناس متعددة.

ويعقب الدكتور مؤنس على هذا الرأي بقوله (لقد خرج المؤرخون الغربيون بهذه النتيجة بعد جهد وعناء، في

---

[16]-برنارد لويس. الحضارة الغربية دمج حداثات والإسلام أول من سعى إلى العالمية، ترجمة: فؤاد حطيط، جريدة السفير، بيروت، الجمعة 7 فبراير 1997م.

[17]-سورة الحجرات، آية 13.

حين أننا معاشر المسلمين والمتكلمين بالعربية، نفتح القرآن الكريم فنجد أنه أجمل ذلك كله في آية واحدة من آياته، وهي الآية الثالثة عشرة من سورة الحجرات (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم).[18]

والملاحظ أن حضور هذه الآية والاستشهاد بها، والالتفات إليها في الأدبيات العربية والإسلامية يكاد ينحصر ويتحدد في نطاق التذكير بها، أو مجرد الإشارة إليها، من دون التعمق في استجلاء دلالاتها، أو استكشاف مكوناتها، أو إمكانية ابتكار مفهوم منها، يكون أصيلاً ومحكماً بشرائطه العلمية، وقواعده الاصطلاحية.

والتأمل الفاحص لهذه الآية، يكشف لنا عن حقائق كلية ذات أبعاد إنسانية عامة، نتوصل منها لمفهوم نصطلح عليه بتعارف الحضارات، والتعارف هو المفهوم الذي حاولت هذه الآية تحديده وتأكيده وإبرازه والنص عليه، من خلال سياق وخطاب يؤكد على قيمته وجوهريته، لأن يكون مفهوماً أساسياً، وذلك بالاستناد على الحقائق التالية:

أولاً: الخطاب في سورة الحجرات متوجه بشكل صريح إلى المؤمنين في بداية السورة وفي خاتمتها، باعتبارها من السور المدنية، إلا في هذه الآية الثالثة عشرة حيث توجه الخطاب إلى الناس كافة بصيغة (يا أيها الناس)، الأمر الذي جعل بعض المفسرين يعتبر هذه الآية مكية، وكون الخطاب متوجهاً إلى الناس كافة فهو ناظر إليهم بكل تنوعهم وتعددهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم، وإلى غير ذلك من تمايزات ومفارقات.

ثانياً: التذكير بوحدة الأصل الإنساني في قوله تعالى (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى)، فالناس مع كل اختلافاتهم وتعدادياتهم وتباعدهم في المكان والأوطان، إنما يرجعون في جذورهم إلى أصل إنساني واحد. والقصد من ذلك أن يدرك الناس هذه الحقيقة، ويتعاملوا معها كقاعدة إنسانية وأخلاقية في نظرتهم لأنفسهم، وفي نظرة كل أمة وحضارة إلى غيرها، كما لو أنهم أسرة إنسانية واحدة على هذه الأرض الممتدة.

ثالثاً: الإقرار بالتنوع الإنساني في قوله تعالى (وجعلناكم شعوباً وقبائل)، وهذه حقيقة اجتماعية، وقانون تاريخي، فالله سبحانه وتعالى بسط الأرض بهذه المساحة الشاسعة لكي يتوزع الناس فيها شعوباً وقبائل، ويعيشوا في بيئات وجغرافيات ومناخات وقوميات مختلفة ومتعددة، لكي يعمروا هذه الأرض، ويكتشفوا كنوزها وخيراتها، ويتبادلوا ثرواتها، ويجعلوا منها بيتاً مشتركاً وآمناً ومتمدناً للجميع، علماً أن القرآن الكريم لم يذكر في كل آياته عبارة (شعوباً وقبائل) إلا في هذه الآية.

رابعاً: خطاب إلى الناس كافة، وتذكير بوحدة الأصل الإنساني، وإقرار بالتنوع بين البشر، فما هو شكل العلاقة بين الناس؟ من بين كل المفاهيم المحتملة في هذا الشأن، يتقدم مفهوم التعارف (ليتعارفوا).

فتنوع الناس إلى شعوب وقبائل، وتكاثرهم وتوزعهم في أرجاء الأرض، لا يعني أن يتفرقوا، وتتقطع بهم

---

[18]–حسين مؤنس. الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطور، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (237)، 1998م، ص50.

السبل، ويعيش كل شعب وأمة وحضارة في عزلة وانقطاع. كما لا يعني هذا التنوع أن يتصادم الناس، ويتنازعوا فيما بينهم من أجل الثروة والقوة والسيادة، وإنما (ليتعارفوا).

ولا يكفي أن يدرك الناس أنهم من أصل إنساني واحد فلا يحتاجون إلى التعارف، أو أن يتوزعوا إلى شعوب وقبائل ويتفرقوا في الأرض فلا يحتاجون إلى التعارف.

ولأن التعارف بين شعوب وقبائل أي بين مجتمعات وجماعات، لذلك جاز لنا استعماله في مجال الحضارات الاستعمال الذي نتوصل منه إلى مفهوم واصطلاح (تعارف الحضارات).

خامساً: إذا انطلقنا من قاعدة التفاضل والمقارنة لنتساءل، لماذا لم تستخدم الآية كلمة ليتحاوروا، أو ليتوحدوا، أو ليتعاونوا، إلى غير ذلك من كلمات ترتبط بهذا النسق، ويأتي التفضيل لكلمة (ليتعارفوا)؟

وهذا هو مصدر القيمة والفاعلية في مفهوم التعارف، فهو المفهوم الذي يؤسس لتلك المفاهيم المذكورة (الحوار، الوحدة، التعاون)، ويحدد لها شكلها ودرجتها وصورتها، وهو الذي يحافظ على فاعليتها وتطورها واستمرارها، هذا من جهة الإيجاب. أما من جهة السلب فإن التعارف كمفهوم وفاعلية بإمكانه أن يزيل مسببات النزاع والصدام.

7 . تعارف الحضارات.. والبناء المعرفي

إذا أردنا أن نقرّب مفهوم التعارف إلى بعض حقول المعرفة الإنسانية، فإن هذا المفهوم يشترك في نسق معرفي متقارب أو متجاور مع مفهوم التواصل الذي عرف به المفكر الألماني المعاصر والبارز يورغن هابرماس، والذي حوله إلى فلسفة أطلق عليها تسمية (التفاعلية التواصلية)، وهي أكثر أفكار هابرماس شهرة واهتماماً، حيث اختبرها وتوصل إليها بعد دراسة نقدية لكبريات النصوص الفلسفية باتجاهاتها المختلفة في منظومات الفكر الأوروبي، من فلاسفة الأنوار إلى فلاسفة ما بعد الحداثة المعاصرين، وذلك في أشهر مؤلفاته، ولعله الأكثر شهرة في حقله أيضاً، وهو كتاب (القول الفلسفي للحداثة).

وفاعلية التواصل في رؤية هابرماس تعني تجاوز ما يصطلح عليه بفلسفة الذات، والعمل على الوصول إلى فلسفة الآخر. وهذا ما تسعى إليه مقولة التعارف أيضاً، التي تتجاوز الذات أو فلسفة الذات إلى بناء المعرفة والتعارف والوصول إلى الآخر.

والفارق الرئيسي بين المفهومين أن مفهوم التواصل عند هابرماس يرتبط بحقل المعرفة أو هكذا حاول ربطه، فتحددت علاقته بالعقل. أما مفهوم التعارف فيرتبط بحقل الاجتماع، فتحددت علاقته بالمجتمع والجماعة والناس.

أما وجه الصعوبة المعرفية التي تواجهنا في هذا الشأن، فهي القدرة على اكتساب الثقة العلمية لمثل هذه المقولات والمفاهيم، والقدرة على بناء القاعدة المعرفية المتماسكة لهذه المفاهيم. خصوصاً وأن المجال العربي في علم الحضارة وتاريخ الحضارات لم يشهد ازدهاراً وتقدماً، وليس معروفاً عن الكتابات العربية تميزها في هذا الحقل، فهي أقرب إلى محاكاة الكتابات الغربية، والتزود بالمعرفة منها، وإتباع منهجياتها ومحاولة تقليدها أو الاعتماد عليها. لهذا فإن المفاهيم والنظريات التي تأتي من العالم العربي تواجه تحديات صعبة في انتزاع الاعتبار العلمي، والجدارة العلمية ليس من الغرب فحسب، وإنما من داخل العالم العربي أيضاً.

يضاف إلى ذلك الصعوبات المتعلقة بعملية الإنماء المعرفي لهذه المفاهيم والنظريات ذات المنشأ العربي، وإمكانية دمجها في التراكمات المعرفية، وإحاطتها بالخبرات والتجارب والحفريات الأثرية والتاريخية والحضارية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، مستويات الاهتمام بتناولها بالدراسة والتحليل والفحص والنقد، لغرض إنمائها وتطويرها وإنضاجها. ومن جهة ثالثة، المشاركة بتعميمها وإلفات النظر إليها والدفاع عنها.

وهذا ما يفسر عدم قدرة العالم العربي على ابتكار الأفكار والنظريات وإدماجها في المعارف الإنسانية، وفتح النقاش حولها على نطاق عالمي واسع. كما يفسر أيضاً غياب التضامن والإحساس بالمشاركة بين الباحثين والكتاب في العالم العربي.

وأخيراً فإن مقولة (تعارف الحضارات)، لا تعني مجرد الاعتراف بتعدد الحضارات وتنوعها، وإنما تستند على ضرورة بناء وتقدم الحضارات في العالم، وتأسيس الشراكة الحضارية فيما بينها، وتبادل المعرفة والخبرة، فالعالم ليس بحاجة إلى حضارة واحدة، وإنما إلى استنهاض الحضارات كافة.

لهذا فإن مفهوم تعارف الحضارات أكثر ضبطاً وصواباً من مفهوم حوار الحضارات، وأوضح تعبيراً عن الرؤية الإسلامية في هذا الشأن، وأن التعارف هو الذي يؤسس للحوار وينهض به، وما تحتاج إليه الحضارات في عالم اليوم هو التعارف الذي يرفع الجهل بصوره كافة، الجهل المسبب للصدام بين الحضارات، في المقابل أن التعارف هو الذي حافظ على تعاقب الحضارات في التاريخ الإنساني.